1ـ لِمَاذَا سَتَنْهَار إِسْرَائِيل حَتْمِيًّا

رحمان النوضة

هَل يُمكن حَـقًّا أن تَنْهَار إسرائيل ؟ هل اِنْهِيَّار إسرائيل هو مُجرّد رغبة ذاتية، أم أنه تُوجد عَوَامِل تُؤَدّي مَوضوعيّا إِلى هذه النـتيجة ؟

1) لـماذا اِنْهِيَار إِسْرائِيل حَتْمِيٌّ

1. لِتَسْهِيل فَـهم اِحْتِمَال حُدُوث اِنهيّار إسرائيل في المُستقبل، يُستحسن إعادة التـفكير في نَمُوذَج ***اِنهيّار الاتحاد السّوفياتي*** سابـقًا. لأن الانهيّأر المُحتمل لإسرائيل سيكون، ليس بالضّرورة على شكل اِنْهِزَام عسكري، وإنما على شكل اِنْحِلَال مُجْتَمَعِي، مُشابه نِسبيًّا لِانْهِيَّار الاتحاد السُّوفياتي.

مَنْ مِنَّا، قبل سنة 1989، كان يَتَنَبَّأُ بانهيّار الاتحاد السُّوفياتي ؟ لا أحد في العالم كلّه. كنّا لا نُفكّر في إِمْكانيّة انهيّار الاتحاد السوفياتي، ولم نكن نـتصوّره، ولم نكن نـقدر على افتراض وُقُوعه. وَلَوْ سُئِلْنَا، قبل سنة 1989، عن اِحْتِمَال وُقـوع هذا الانهيّار لَسَخَرْنَا مِن الشّخص الذي

يَطرح هذا السُؤال. بل قد نعتبر من طرح هذا السُؤَال شبه أحمق. ثُمَّ إنْهَارَ فِعْلًا الاتحاد السُّوفياتي بشكل مُفاجئ في قُرابة سنة 1990. وتحوّل ما كُنّا نظنّه مُستحيلًا، إلى واقع ثابت. ***نَفس الشّيء، أو شَيْء مُشابه، سيحدث لإسرائيل.***

واليوم، مُعظم العالم لا يتصوّر، ولو لحظة واحدة، أنّ إنْهيّار إسرائيل مُمكن. ولا أحد يقول اليوم في العالم أن إسرائيل ستنهار كُلِيًّا، وأنها سَتَزُولَ نهائيًّا. لكن غدًا، في مُستقبل غير بعيد، سيصبح إنهيّار إسرائيل حدثًا مُسَلَّمًا به.

2. لَا يُمكن لأيّة قوّة في العالم أن تَمْنَع، بِلَا نِهاية، حُدُوث اِنْهيَّار إسرائيل. ولماذا ؟ لِعِدَّة اِعْتِبَارات. ***أَوَّلًا،*** لأن إسرائيل تُجَسّد أكبر ظُلْم مُمَوَّه في تاريخنا الحديث (ضِدّ شعب فلسطين، وضدّ الشعوب المجاورة). ***وَثَانِيًا،*** لأن إسرائيل تُناقض المَنطق البَشري. ***وَثَالِثًا،*** لأن ***إسرائيل اِسْتِعْمَارِيَة، وعُنصريّة، وإِمْبِرْيَالِيَة، وعُدوانية، وَتَوَسُّعِيَة.*** وهذه اِلْاِعْتِبارات هي كلّها أساسية، ولا يجوز الاستهانة بها. وذاك هو ما سَنُوَضّحُه في هذا المقال.

3. حَسب قراءة مُوجَزَة لِتَطوّر الأحداث الأخيرة في العالم، فإن ***اِنهيّار إسرائيل، لَمْ يَعُد فقط تطوّرًا مُمكنا، بل أصبح أمرًا حتميًّا، في مُستقبل غير بعيد.*** وَكَمْ سَيتطلّب ذلك من الوقت ؟ قد يحتاج إلى عام، أو خمسة أعوام، أو عشرة. لا أَدْرِي. لكن، دَعْم الدُّول الغربية لإسرائيل، لَنْ يستطيع إنقاذها من مَصير الانهيّار؛ مثلما أن دَعْم الدّول الغربية لِجَنُوب إفريقيا (الماضية) التي كانت مَبنيّة على أساس العُنصرية لم يستطع إنقاذها من الانهيّار؛ ومثلما أن دَعم الدّول الغربية لِحَركات النَّازِيّين في أُوكْرَانْيَا لم يقدر على إنقاذها من الانهيّار؛ ومثلما أنّ تَآمُر الولايات المُتّحدة الأمريكية والدّول الغربية، بِهَدف إسقاط الحُكُومات التَقَدُّمية أو اليسارية، في بلدان أمريكا الجنوبية، أو بِهَدف تَعويضها بِحُكُومات دُمْيَات، لم يَنْجَح طَوِيلًا. إلى آخره.

4. ***تُوجد عوامل أُخرى كثيرة تُساهم في إِنْضَاج حُدُوث اِنْهيّار إسرائيل.*** ومنها خُصوصًا تَصاعد المُقاومات الفلسطينية، على مُختلف المُستويات والجَبهات والمَحاور. ومنها أيضًا التَرَابُط القائم

فيما بين التناقُضات البَيْنِيَة التي تُحرّك مُجمل بلدان المنطقة (مثلا بين السعودية والإمارات وإيران). ومنها أيضًا تطوّر مَوَازِين القِوَى فيما بين دوّل الشّرق الأوسط التَقَدُّمِيَة وَدُوَلِه المُحافظة، أَو الرّجْعية، أو المُفْرِطَة في التَبَعيَّة لِلْإِمْبِرْيَالِيَّات الغربية. وَتُساهم هذه العناصر كلّها ***في صيرورة إِنْضَاج شُروط اِنهيّار إسرائيل.***

5. في الماضي، كانت الحُروب بين إسرائيل والدّول العربية المجاورة تدوم خلال بضعة أيّام. لأن «التَفَوُّق العسكري الاستراتيجي المُطلق» الذي وَفَّرته، وَضَمِنَتْهُ، الإمبرياليات الغربية لإسرائيل، كان يَسمح لها بحسم هذه المعارك العسكرية بِسُرعة لصالحها. لكن المُقاومات المحلّية المناهضة لإسرائيل تعدّدت، وتنوّعت، وتنامت، وتطوّرت، إلى درجة أن إسرائيل (والإمبرياليات الغربية) أصبحت اليوم عاجزة على حسم هذه الحروب في وقت وجيز. بل ***تَحوّل طُول الحرب إلى نُقطة ضُعف قاتلة لدى إسرائيل.*** وَكُلَّمَا فَتحت إسرائيل اليومَ حربًا في جبهة مُعَيَّنَة (مثل غَزَّة في سنة 2023)، تَشْتَعِلُ فَوْرًا الحرب ضدّ إسرائيل على جبهات أُخريات (مثل جنوب لُبنان، والضِفَّة الغربية، والعراق، وسوريا، واليمن). وتحوّلت خُرافة «الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر» إلى جيش مُهَدَّد بِالانهيّار، إذا لم تتدخّل بِسُرعة جُيوش الدّول الغربية الإِمْبِرْيَالِية لِدَعْمِه بشكل مُطلقة وَمُباشر.

6. إذا كانت المُقاومات الفلسطينية، واللبنانية، والسورية، والعراقية، واليمنية، وغيرها، قادرة (أو مُجبرة) على تحمّل ضَرَبَات إسرائيل المُدَمِّرَة، وَالمُتَكَرِّرَة، والفَظيعة، فإن ***ميزة إسرائيل هي أنها لا تقدر على تحمل ضَربات مُوجعة، أو مُتَوَاصِلَة، خلال أَمَد طَويل.*** وإذا ما تكاثرت وتواصلت الضربات المُوجعة المُوَجَّهَة إلى إسرائيل، فإن ***الكيّان الإسرائيلي يَتآكَل من داخله، وَيَنْحَل، ثمّ يتهاوى، وقد ينهار كُلِّيًا إذا طالت الحرب.*** وتجربة الحرب الحديثة بين "حِلْف شَمال الأطلسي" (NATO) ورُوسيا في أُوكْرَانْيَا (Ukraine)، تُبَيِّن بِوُضُوح أن دَعم الدّول الغربية لِأُوكْرَانْيَا (وكذلك دَعم الدّول الغربية لإسرائيل) يَتْعَبُ بِسُرْعَة نِسبية، وَيَتَضَاءَل، وَيَنْضُبُ، ثمّ يتوقّف، مهما كانت النتائج كارثيّة بسبب تَوقّف هذا الدّعم.

7. مثلا في حرب سنة 2023 الحالية في غَزَّة، وبعدما دخلت هذه الحرب في شَهرها الثّالث (أثناء كتابة هذا المقال)، ظَهَرَت تطوّرات مُتعدّدة، وَغَيْر مُتَوَقَّعَة، بَل مُدَمِّرَة، داخل إسرائيل. منها مثلًا : ***الهِجْرَة المُضادّة*** (إلى خارج إسرائيل)، حيث تجاوزت أعداد هؤلاء المُهاجرين الإسرائيليّين (خلال بضعة أيّام) نِصْف مليون شخص إسرائيلي؛ وَمنها تَوَسُّع ***عُجُوزَات*** (جَمْع كلمة عَجْز déficits) مِيزانيات مُختلف مُؤسّسات دولة إسرائيل؛ ومنها ***تَهَاوِي العُملة*** الإسرائيلية الشِيكَل؛ ومنها تَصَاعُد ***التَضَخُّم***؛ ومنها أنّ عدداً مُتزايداً من ***الأنشطة الاقتصادية الإسرائيلية تَتَعَرْقَل***، أو تُصبح شِبه مَشْلُولة (مثلًا الفلاحة، والصناعة، والخدمات، والتِكْنُولُوجيَات، والتصدير، الخ)؛ ومنها ***بُرُوز وَتَفَاقُم تَنَاقُضَات حَادَّة*** فيما بين مُختلف الفِئَات المُجتمعية المُكَوِّنَة لِلمُجتمع الإسرائيلي؛ ومنها ***فِرَار عدد مِن المُستوطنين*** (أكثر من 850 ألف شخص) الذين تَقع مُستوطناتهم بالقرب من مناطق الاشتباكات الحربية السّاخنة؛ ومنها اِنتشار ***مُظاهرات مُساندة لِلشّعب الفَلسطيني*** في العَديد من دُوَل العالم؛ ومنها ***تَهَاوِي أو زَوَال مَشْرُوعيّة وُجود إسرائيل*** لَدى سُكَّان مناطق واسعة من العالم؛ ومنها أنّ الثِقَة القَديمة في ***القِيَم المُؤَسِّسَة لإسرائيل*** تُصبح عُرْضَة لِلشَكّ، أو لِلمُراجعة، أو لِلنَّقْد، أو لِلرَّفْض؛ ومنها ***تَضَاءُل استعداد العساكر الإسرائيليّين*** لِلتضحية بحياتهم دفاعًا عن المشروع الصهيوني؛ ومنها تَصَاعُد ***غَضَب عائلات*** الجُنُود الإسرائيليّين المقتولين، وعائلات الجرحى، والمعطوبين، والأسرى، والمُختفين؛ ومنها ظُهُور وانتشار ***أَزَمَات نَفْسِيَّة*** شَديدَة لدى جُزء هامّ من الإسرائيليّين: ومنها ظاهرة الاِسْتِهْلَاك المُفْرط ***لِلمُخَدِّرَات***؛ إلى آخره. وهذه التطوّرات تُؤَثِّر على بعضها بعضًا، وَيُمكنها أن تَتَفَاقَم بسرعة غير مُتوقّعة.

8. رَغم أن الطائرات الإسرائيلية تُهَيْمِنُ وحدها في سَماء "الحرب" على غَزَّة، وتطلق بسهولة مُتَفَجِّرات ثَقِيلة وَمُدمّرة (نحو أَلْفَ طُنّ من المُتَفَجِّرَات في اليوم) على المنازل، والمساكن، والعمارات، وعلى البُنَى التَحْتِيَة؛ وَرَغم أن إسرائيل تُدمّر المساجد، والكنائس، والمدارس، والمُسْتَشْفَيَات، وَمُوَلِّدَات الكَهْرَبَاء، والأوراش، وكلّ شيء؛ وَرَغم أن

الفلسطينيّين يتعرّضون لحرب تَهْجِيرٍ وَإِبَادَة، في غَزّة، وفي الضِفّة الغربية؛ وَرَغم أن عدد القتلى الفلسطينيّين تجاوز 20 ألف قتيل، و 55 ألف جريح، بعد مُرور قرابة 75 يومًا على بداية الهُجوم الإسرائيلي المُضاد؛ وَرَغم أن إسرائيل اِعتقلت بِسُرعة (وبدون مُبرّر) في الضِفَّة الغربية المُحتلّة أكثر من 5 ألف أَسِير فلسطيني جديد؛ وَرَغْم أن إسرائيل قَتَلَت بالرّصاص أكثر من 300 فلسطيني مَدَنِي في الضِفَّة خلال هذه الفَتْرَة الوَجِيزَة (75 يومًا)؛ وَرَغم أن إسرائيل لا تَعْتَرِف سوى بِـ 153 قتيل وقرابة 5000 جريح من بين عساكرها (بينما المقاومة الفلسطينية تُقدّر عدد القتلى الإسرائيليين بما يقرب من 2000 قتيل؛ وإسرائيل تُقَدّر عدد قَتْلَى المُقاومة بِـ 2000 قَتِيل)؛ فإن أعدادًا مُتزايدة من المُراقبين (من داخل إسرائيل، ومن خارجها) يُحِسُّون أن إسرائيل تظهر قريبة من ***الانهيّار الشّامل***، بينما يَزْداد الفلسطينيّون إصرارًا على المقاومة، وعلى التضحية، من أجل تَحرّرهم الوطني.

9. لَوْ لَمْ تَكن إسرائيل قد شَعُرت (بعد هُجوم يوم 7 أكتوبر 2023) بِأَنّها ***بَدأت تَنْهار***، لَمَا ***طَلبت نَجْدَةً مُستعجلة*** من حُلفائها الدّول الغربية الإِمْبِرْيَالِية؛ وَلَمَا هَرَعَت بِسُرعة أقوى السُّفُن الحربية المتنوّعة، الأمريكية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، وغيرها، إلى شرق البَحر الأبيض المتوسّط؛ وَلَمَا نظّمت بِسُرعة الدّول الغربية قَنَاطِرَ جَوّيَة ضَخمة وعاجلة لنقل المُقاتلين، والخُبراء، والكَوَادِر، وَمُختلف مُستلزمات الحرب، من الدّول الغربية إلى إسرائيل.

10. عندما يُفكّر بعض الأشخاص في احتمال حُدوث ***اِنهيّار إسرائيل***، فإنهم لا يقدرون على تصوّر هذا الانهيّار سِوَى على شكل ***هَزِيمة عسكرية***، في معركة حربية كبرى. وهذا التصوّر تنقصه ***الرُّؤْيَة الجدلية***. لأن اِنهيّار إسرائيل لَا يَنْتُج فقط عن معارك حَربية، وإنما ينتج أيضا عن أشياء أخرى غير مَرْئِيَة، أو غير مُعتادة، أو غير مُتَوَقَّعَة. ولأن إنهيّار إسرائيل ليس مشروطا بِتَفَوُّق عسكري لدى المُقاومات الفلسطينية. كما أنه ليس مشروطًا بِقُدْرَة هذه المقاومات

الفلسطينية على هَزْم إسرائيل عَسكريًّا، في ميدان معركة حَربيّة كلاسيكية ضخمة. ولماذا ؟

أوّلًا، لأنّ حرب الفلسطينيّين أو العرب ضدّ إسرائيل هي دائمًا حرب ضدّ تَحَالف الدّول الغربية الْإِمْبرْيَالِيّة. ولأنّ كفاح المقاومات الفلسطينية، هو في عُمقه، كفاح ضدّ مُجمل مُعَسْكر الدّول الغربية الإمبريالية.

وثانيًا، لأن إسرائيل هي عَمَلِيًّا مُستعمرة مُشتركة لِمُجمل الدّول الغربية الإمبريالية.

وثالثًا، لأن اِستمرارية وُجود إسرائيل لا يَشترط فقط تَفَوُّقَها عسكريًّا، وإنما يشترط أيضًا عناصر مُجتمعية أخرى كثيرة (يضيق هنا المجال لتوضيح هذه العناصر المُجتمعية بالكامل).

وَرَابِعًا، لأنه يُستحسن أن نَتصوّر اِنهيّار إسرائيل على شكل ***صَيْرُورَة مُجتمعية*** (سيّاسية، واقتصادية، وفكرية، وعسكرية، وثقافية، وعالمية). وَيُستحسن أن نَتَخَيَّل اِنهيّار إسرائيل على شكل ***صَيْرُورَة*** مُشَابِهَة نسبيّا لذلك الانهيّار الذي حدث في الاتحاد السوفياتي. حيث أن إِنْهِيَّار الاتحاد السُّوفياتي، لم يَنْتُج عن مَعركة عسكرية كُبرى مع الولايات المُتّحدة الأمريكية. وإنّما اِنْهَار الاتحاد السُّوفياتي بهُدُوء، خلال عُقُود، ***نَتِيجةً لِاخْتِمَار تَنَاقُضَات دَاخِلِيّة.*** أيْ أنّ اِنْهِيَّار إسرائيل سيكون هو أيضًا على شكل ***اِنْحِلَال مُجتمعي عَمِيق، وَمُتواصل، على اِمْتِدَاد أَجَل مُتوسّط المَدَى.*** وبعبارة أخرى، فإن هذا الانهيّار، سيحدث داخل الكِيَّان الإسرائيلي على شكل ***صَيْرُورَة اِنْحِلَال داخلي،*** وَعلى شكل تَآكُل عَميق، وَتَفَسّخ مُتَسَارِع، في جميع الميادين، وعلى جميع الأصعدة المُجتمعية. وَمَآل هذه ***الصّيرورة،*** حينما سَتُصبح ناضجة، هو أن كلّ شيء داخل إسرائيل سَيَتَوَقَّف عن العمل، أو أنّ اِشْتِغَاله سَيَغْدُو مُتَعَذِّرًا، بالمُقارنة مع ما كان عليه في الماضي. بل اِشْتِغَال بعض المَرافِق المُجتمعية داخل إسرائيل سَيُصْبِح من شِبه المُستحيل. وفي النهاية، أي ***أثناء نُضْج عَمليّة الانهيّار، سَيَحدث تَسارع في هذه الظّواهر المُجتمعية.*** وَسَيَهْرُب من الكيّان الإسرائيلي الأشخاص الذين يُكَوِّنُونَه، وذلك مثلما تهرب الفِئْرَان من سفينة في

حالة الغَرَق. وهكذا سَنَرَى أفواجًا من جماعات مُتوالية، وهي تهرب من إسرائيل، مثل جماعات الجُنود، والضُبّاط، والاستخباراتِيّين، والسيّاسيّين، والكَوَادِر، والتِقْنِيّين، والمُسْتَثْمِرين، والعاملين في المؤسّسات البنكية، والباحثين، والمُستوطنين، والمُنتجين، والإداريّين، والبوليس، والسَجّانين، والمُعَذّبين، والمُرْتَزِقَة، والانتهازيّين، وغيرهم. وكلّ إسرائيلي هَارِب سَتكون له مُبرّراته الخاصّة به. وَسَتُصبح ***جوازات السّفر الأجنبية*** (أي غير الإسرائيلية)، هي وَرَقَة النَجَاة من جَهَنَّم الصهيونية. وَسَيَتَسَابَقُ قُدماء الإسرائيليّين على اكتساب حقوق المُواطنة في الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وأوستراليا، وَنْيُو زِيلَنْدَا، وفي بعض بلدان أَوْرُوبَّا الغربية، أو حتّى في روسيا، الخ. وسيغدو كثيرون من قُدماء الإسرائيليّين سَعِيدين بالعَودة إلى ما بَقِيَ من عائلاتهم، وإلى مُمتلكاتهم العقارية العَتيقة، في بُلدان المَلجأ، وسيرجعون إلى حساباتهم البنكية القديمة، وإلى أنشطتهم الاقتصادية الماضية، في البلدان الغربية (أو في روسيا).

ولن يبقى في فلسطين سوى تلك الأقلية (من قُدماء الإسرائيليّين) التي اِكْتَشَفَت زَيْفَ الأَيْدِيُولُوجيَّة الصَّهْيُونية، وَقَبِلَت طَوْعِيًّا التَخَلُّص منها، وَقَبِلَت التَعَايُشَ مع «أعدائهم» القُدامى الذين هم الفلسطينيّون. ولن تَبْقَى في فلسطين سوى تلك الأقلّية (من الإسرائيليّين) التي رَضِيَت بأن تكون حُقوق المُواطنة في فلسطين الجديدة المُحَرَّرَة (من البحر إلى النهر) مُتَساويّة بين كل المُواطنين، بغضّ النظر عن دِينهم، أو تَعَبّدِهم، أو عِرْقِهم، أو إِثْنِيَتِهِم، أو طائفتهم، أو لُغَتهم، أو لَوْن بَشَرَتهم، أو مُعتقداتهم.

11. ما دَام اليَهود المُتَصَهْيِنُون يَستعملون ***مَناهج التَحايُل، والتَضْلِيل، والكَذب، والخِداع،*** تُجاه شعب فلسطين الضحية، وَتُجاه المُجتمع الدُولي العام، فإنهم سَيستعملون بالضّرورة نفس المَناهج فيما بينهم. ونتيجةً لِذالك، سَتكبر، وَسَتَتَفَاقم، التَناقُضات الحادّة فيما بينهم. بَل إن تلك الصِّفات الخُلُقِيَة السَّلْبِيَة المَنْبُوذَة، التي كانت في الماضي تُغَذّي كَرَاهِيَة اليهود، أو التي كانت تُبَرِّر اِضطهادهم، سَتصبح من جديد مَلحوظة، أو مُؤَكَّدة، في سُلوكيّات كل فرد أو جماعة

مُكَوِّنَة لهذا الكيّان الإسرائيلي الصّهيوني. خاصّة وأنّ أفراد الجماعات اليَهودية يَميلون إلى ***التَصَرُّف بعَقلية القَبيلة، وَبِعَقْلِيَة الْأَقَلّيَة المُضطهدة*** أو المَنبوذة. وَيَتَصَرَّفُون كَحِزب سيّاسي سِرّي. وَسَيزداد نُفور بعض الناس من اليهود المُتصهينين، بسبب إِفْرَاطِهِم في استعمال مَناهج التَحايُل، أو التَضْلِيل، أو الكَذب، أو الخِداع. وَسَتَنغلق الدّائرة على نفسها في مجال السُلوكيّات المَنبوذة. وكما قال المثل الشّعبي: «مِثْلَمَا تَقْتُل، مِثْلَمَا تْمُوت» (بِمَعنى: «الوَسائل التي تستعملها لِقَتل خُصومك، هي نفس الوسائل التي سَتُقْتَل بها أنتَ بِنَفْسك»).

12. سَنُلَاحِظ أن ***اِنْهِيَّار إسرائيل*** من جهة أُولى، ومن جهة ثانية ***اِنْهِيّار هيمنة الولايات المُتّحدة الأمريكية*** على العالم، هما شيئان مُترابطان. لأن التَسَارُع في نُضُوج كلّ واحد منهما يُسهّل نُضُوج الآخر. وقد يكون اِنهزام أمريكا، وانهزام الدّول الغربية الإمبريالية، في صراع فلسطين، مُدَوِّيًا، وَمُؤَثِّرًا، أكثر من انهزامهم في الحرب الجارية في أُوكْرَانْيَا (Ukraine)، بين "حِلْف شَمال الأطلسي" (NATO) وَرُوسْيَا. وفي الماضي، أَيْ في قُرابة سنوات 1950، لم يُؤَثِّر كثيرا أُفُول الْإِمْبْرَاطُورِيَة الْإِنْجْلِيزِية على حَليفها إسرائيل، لأن هُبوط هذه الإمبراطورية الْإِنْجْلِيزِية الحليفة، كان يُوازِيه تَنَامِي الحَلِيف الجديد الذي هو الإمبراطورية الأمريكية الصّاعِدَة. أمّا اليوم (في سنة 2023)، فإن اِضْمِحْلَال هَيْمَنَة الولايات المُتّحدة الأَمْرِيكِيَة على العالم، لا يُمكن أن يُعَوِّضَه سوى تَعَاظُم قِيّادة نَقِضهَا، أَيْ رُوسْيَا، والصّين، ومجموعة «البْرِيكْسْ» (BRICS). الشيء الذي يَفتح آفاقًا لِتَطوّرات غير مُتَوَقَّعَة.

13. كُلّما اِنْهَزَمَت إسرائيل، في أَيَّة معركة كانت، فإن هزيمتها ستكون، في نفس الوقت، هزيمة للولايات المُتّحدة الأمريكية (ولحلف شمال الأطلسي NATO). كما أن أيّة هزيمة للولايات المُتّحدة الأَمْرِيكِيَة (أو لِحِلْف النَاطُو) ستكون، في نفس الوقت، هزيمة لإسرائيل. كما أنّ اِنْهِيَّار إسرائيل، حينما سيحدث في المُستقبل، سيكون كارثة كبيرة على الولايات المُتّحدة الأمريكية (وعلى حِلْف النَّاطُو). لكن حينما

ستنهار إسرائيل في المُستقبل، ستكون الولايات المُتّحدة الأمريكية قد تَقَهْقَرَت نِسْبِيًّا في مجال هَيمنتها على العالم.

14. مِن بين ***مَظاهر الجَدَلية*** الأخرى في الصّراع بين فلسطين وإسرائيل، يُوجد ما يَلِي : لكي تُنْقِذ إسرائيل نفسها من التآكل، ومن الضّرر، ومن الانهيّار، ليس لها من خيّار سوى سحق المقاومات الفلسطينية. لكن المقاومات الفلسطينية مُنغرسة داخل الشعب الفلسطيني، ولا يُمكن فصلها عنه. وذلك إلى درجة أنه لا يُمكن سحق المقاومات الفلسطينية دُون سحق الشّعب الفلسطيني، أو تهجيره، أو إبادته. وكلّما حاولت إسرائيل سحق الشعب الفلسطيني، كلّما تَنامى إصرار الفلسطينيّين على المُقاومة. وكلّما أجهزت إسرائيل على الفلسطينيّين، تصاعدت مَوْجات عارمة من الاستنكار والسُّخط عبر العالم، تُندّد بِإجْرَام إسرائيل، وبالصّهيونية، وبجرائمها ضدّ الإنسانية. وتطالب هذه المُظاهرات الحاشدة عبر العالم بِمُقَاطَعَة إسرائيل، أو بِطَردها من المُنتظمات العالمية. وهكذا، تَتَكَاثَرُ مُبَرِّرَات تَجْرِيم إسرائيل، وَتَتَعَاظم عَوَامِل اِنْهِيّار إسرائيل. وَسَتُدَعِّم قِوَى مُتزايدة عبر العالم المُقاومات الفلسطينية. وَسَتَكْبُر قِوَى هذه المُقاومات الفلسطينية، وستتزايد فعاليّات كفاحها. فتحصل إسرائيل على عكس ما تطمح إليه. ***وفي هذه الجَدَلِيَّة، كل ما تَفعله إسرائيل، يُسَرِّع اِنْهِيَارَهَا.*** وحتّى إذا لم تفعل إسرائيل شيئًا، فإن عدم فعلها يُسَرِّع هو أيضًا اِنْهِيّارَهَا. وَلِكُلّ هذه الأسباب، سيكون ***المصير الحتمي لإسرائيل، ومهما طال الزمان، هو الإنهيّار والزوال.***

15. لِإِدْرَاك كَيْف ظلّت تَعمل دعَايَة وَسائل إعلام الدّول الغربية، تخيّل الآن أنك مُواطن في بلد مُعَيَّن (في "العالم الثالث"). وتخيّل أن بلادك تَعَرَّضَت لِلغزو أو للاستعمار من طرف قِوَى أجنبية تَتَوَفَّر على أسلحة عسكرية فَتَّاكَة. وتخيّل أنك اِخْتَرْتَ أن تُشارك في مُقاومة الهَيْمَنَة الخارجيّة، أو الاستعمار الأجنبي. وتخيّل أنك قُمْتَ بأفعال مُقَاوِمَة لِلْاِسْتِعْمار. وتخيّل أنك اِستعملتَ الحِجَارة، أو العُنْف، أو السِّلَاح، أو المُتفجّرَات، أو ما شابه ذلك. في هذه الحالة، ماذا ستقول عنك وسائل إعلام الدّولة المُسْتَعْمِرَة، وَوَسائل إعلام عامّة الدّول

الغربية الإمبريالية ؟ سيقولون عنك أنك «إِرْهَابِيًّا»، وأنك «فَاشِيًّا»، وأنّك «هَمَجِيًّا». وَسَيُبِيحُون اِغْتِيَالَك، وسيقتلونك، أنتَ، وَأَهَالِيك، وشعبك. هذا ما فعلوه، وهذا ما سَيَفْعَلونه دائمًا، تُجاه المُقَاوِمِين في فلسطين المُحتلّة، وفي العراق، وفي سُورية، وفي لُبنان، وفي ليبيا، وفي كلّ مكان آخر. وَيَلْجَأُ دائمًا الْإِمْبِرْيَالِيُّون إلى اِضْطهاد شُعوب "العالم الثّالث". وَيَلْجَأُ دائمًا المُسْتَعْمِرُون إلى الحُكْم على المُسْتَعْمَر بِالتَهْجِير، أو التَطْهِير العِرْقِي، أو القَتْل، أو الْإِبَادَة. هذا ما جرى في كلّ المناطق المُسْتَعْمَرَة، بما فيها فلسطين المُحتلّة. وَمُجمل المَفَاهِيم التي تستعملها القِوَى الإمبريالية في لُغَتِها، تَصِف ضَحاياها بِكَونهم هم المُجرمون. وَتُحَوّل المَظلوم إلى ظَالِم.

16. قَد يَقول البعض أنّ أُطروحة «حَتْمِيَّة اِنْهِيّار إسرائيل» هي أُطروحة مُنْحَازَة، أو مُبَالَغ فيها، وأنّ الإسرائيليّين لَنْ يتخلّوا أبدًا عن مشروع اِحتلال واستيطان فلسطين. لكن إذا نظرنا إلى ما يفعله الإسرائيليّون في الواقع، سنجد أن هؤلاء ***الإسرائيليّين لَا يَثِقُون هُم أَنْفُسُهُم في مُستقبل إسرائيل.*** ولماذا ؟ لأنه بدلًا من أن تَكون للإسرائيليّين جِنْسِيَة واحدة، هي جِنسية إسرائيل، نجد أنّ أكثر من 90 في المئة من الإسرائيليّين يُصِرُّون، وَبِكُلّ الوسائل، على الحُصول على جِنْسِيَّات مُتَعَدّدة، وعلى جوازات سَفَر مُتعدّدة. لأنّ كلّ إسرائيلي، وَبِمَهَارَته المَعْهُودة، يُفَكّر سِرًّا داخل نفسه قَائِلًا : «مِن باب الْاِحْتِيَّاط، وفي حالة غَرَق السَّفِينَة الإسرائيلية، مِن الأفضل أن تَكون لدي عَجَلَة اِحْتِيَاطِيَة، لِكَيْ أَنْجُوَ بِنَفْسِي». وهذه حُجَّة قاطعة على أن مُعظم الإسرائيليّين، وفي أَعْمَاق لَا وَعْيِهِم (inconscients)، لَا يَثِقُون هُم أنفسهم في مُستقبل إسرائيل. ويشعرون أن المشروع الإسرائيلي غير قابل للحياة. وهم دائمًا على اِسْتِعْدَاد لِكَي يُصبحوا مُواطنين في دُوَل أخرى غير إسرائيل، خاصّةً إذا كانت هذه الدول قويّة وغنيّة. إنهم يُفضّلون التَرحال من بلد إلى آخر، بحثًا عن فرص الاغتناء السّهل والسّريع.

17. وَالسِرُّ في اِنْهِيَّار إسرائيل هو أنّه تُوجَد مَرْحَلَتَان في تَاريخ العلاقة بين إسرائيل والفلسطينيّين. وخلال المَرحلة الأولى، كان

الفلسطينيّون في حَالَة دينَامِيَّة (dynamique) إِضْعَاف (affaiblissement) اِسْتْرَاتِيجي مُتَوَاصِل، بينما كانت إسرائيل في حالة دينَامِيَّة تَقْوِيَّة (renforcement) اِسْتْرَاتِيجيّة مُتَوَاصِلَة. وأثناء هذه المرحلة الأولى، كانت إسرائيل تَضْرِب وَتُضْعِفُ الفلسطينِيّين بِلَا عِقَاب، وَبِلَا تَبِعَات. لكن خلال المرحلة التاريخية الثانيّة والأخيرة، يَحدث عَكْس ما حدث خلال المرحلة الأولى. حيث أنه، أثناء هذه المرحلة الثّانيّة، كلّما ضَرَبَت إسرائيل الفلسطينيّين، فإن إسرائيل تَضْعُفُ، وَتَقْتَرِب بِسُرْعَة مِن اِنْهِيّارها. وَحَتَّى إذا لم تَفْعَل إسرائيل شيئًا لِإِضْعَاف الفلسطينيّين (خلال هذه المرحلة الثانية)، فإن إسرائيل تَضْعُفُ أيضًا، وَتَسْتَمِرُّ في الْاِقْتِرَاب من اِنْهِيَّارِهَا، ومن زَوَالِهَا. وهذا هو مَصِير إسرائيل. ويستحيل أن تَنْجُوَ إسرائيل من اِنْهِيَّارِهَا. وَحَتْمِيَّة مَوْت إسرائيل مكْتُوب أصلًا في طَبِيعَتِهَا. وَلَا يَنْحَصِر مُشكل إسرائيل فقط في اِحْتِلَالها غير المشروع لِلضِفَّة الغربية، وَلِقِطَاع غَزَّة. وَلَا يَنحصر مشكل إسرائيل في تَهَرُّبِهَا من «حَلّ الدَّوْلَتَيْن». ولا ينحصر مشكل إسرائيل في اِعْتِمَادها على الغَزْو، والاحتلال، والقَهْر، والاستيطان. وإنّما المُشكل هو أنّ مَشْرُوع إِنْشَاء إسرائيل لَا يُمكن أن يُنْجَز، ولا يُمكن أن يُوجد، سِوَى بواسطة العُدْوان، والاحتلال، والاستعمار، والقَهْر، والتَطْهِير العِرْقِي، والإبادات الجماعية. والمُشكل هو أيضًا أن طبيعة إسرائيل هي كَوْنُهَا اِسْتِعْمَارِيَة، وَعُنْصُرِيَة، ودّينِيَة. وَتَتَنَافَى طبيعة إسرائيل مع العَقْل، ومع العَدْل، ومع القانون. ورغم أن بعض الدّول العربية تَقْبَل "التَطْبِيع" مع إسرائيل، يَستحيل في الواقع المَلموس أن تَتَعَايَشَ إسرائيل مع الشُعُوب العربية المُسلمة المُجاورة.

18) اعتبارًا لِمُجمل تلك العَوَامِل التي سبق ذكرها، أُؤَكِّدُ أنّ العناصر التي ستؤدّي إلى ***انهيّار إسرائيل*** هي نوعان. ***نَوْع أوّل*** هو ذو طبيعة عسكرية، ويجري في ميادين المعارك الحربية المُباشرة، والمَرئية. ***وَنَوْع ثان*** هو ذو طبيعة مُجتمعية عميقة، ويجري على مُستويات غير مرئية، أو غير مَحسوسة، أو غير مُعتادة، أو غير مُتَوَقَّعَة. وتلك هي أهمّ أسباب الْاِنْهِيَّار الحَتْمِي لِإِسْرائيل.

2) بُطْلَان مُبَرِّرَات إِنْشَاء إِسْرَائِيل

مُجمل المُبَرِّرات التي عَـلَّـلَ بها الصَّهَايِنَة إنشاء إسرائيل، هي مَـغلوطة، وَمُضَلِّلَة. وَلِـفَـهم ذلك، يكفي أن نَـفْـحَـصَ، وَلَوْ بِشَـكل مُوجَز، وَمِن مِنْظَار تاريخي، مع الحرص على احترام دقة العقلانية، ***كيف بَـرَّرَت الحَرَكَة الصّهيونية (وكذلك الدّول الغربية) إِنْشَاء إسرائيل.***

قَديمًا في دُوَل أَوْرُوبَّا، ومنذ القُرُون الوُسطى وَحُرُوبها الدّينية (بين الكَنِيسَة والدّولة)، كان بعض المُواطنين الذين يَـعْـتَـنِـقُون الدِيَانَة اليَهُودية يَتَـعَـرَّضُون إلى درجة أو أُخْرَى من الاضطهاد، المُوجّه ضِدَّهم بِصِـفَـتِهم يَـهُود.

ولمّا وصلت الحركة النَازِيَة إلى السُّلطة السياسية في ألمانيا في سنة 1933، دَفَـعَهَا حماسها المُفرط في كلّ شيء إلى تحويل ذلك ***الاضطهاد*** القديم، المُعادي لليهود، إلى عَمَلِيَّة مُمَنْهَجَة لِلتَخَلّص من اليهود. ودخلت السُّلطة السيّاسية النَازِيَة في أَلْمَانْيَا في مُحاولة ***إبادة اليَهود.*** فَنَظَّم النازيّون الألمان ***مَحْرَقَة لِلَيهود،*** (ولكن ليس مَحْرَقَة لليهود وَحْدَهُم، مثلما يَدَّعِي الصَهَايِنَة، بل مَحْرَقَة لكلّ أنواع الأشخاص الذين كان النَازِيُّون الْأَلْمَان يَـكْـرَهُونَهُم، بما فيهم الشِيُّوعِيّين، والاشتراكيّين، والغَجَرِيّين، والمِثْلِيّين، الخ).

وكان الأوروبيّون يُسَمُّون اِضطهاد اليَهود بِعبارة «مُعاداة السَّامِيَة» (anti-sémitisme). وَسَمَّوْا مُحاولة إبادة جزء من اليهود من طَرَف النَازِيّين الألمان بِعبارة «المِحْرَقَة»، أو «الهُولُوكُوسْت» (holocauste)، أو «الشُّووَا» (Shoah).

وبعدما اِنهزم النازيّون في «الحرب العالمية الثانية» في سنة 1945، قَامت ***حركة يَهودية صهيونية،*** وزَعَمَت أن «الحَلّ لِتَلَافِي اِضطهاد اليهود في المُستقبل، هو خَلق وَطَن جديد خاص باليهود في مُسْتَـعْـمَـرَة إنجليزية مُـعَـيَّـنَة» (هي فلسطين)، من بين المُستَعمرات التي كانت موجودة آنذاك في العالم. وساندت الْإِمْبِرْيَالِيّة المُهَيْمِنَة

آنذاك على العَالَم (وهي الْإِمْبْرَاطُورِيَة الْإِنْجْلِيزِية المُسْتَعْمِرَة) هذا الحَلّ الصّهيوني.

لكن، لِنَتَسَاءَل الآن : مِن وُجْهَة نظر ***المَنْطِق، أو من زَاوِيَة العَقْل،*** هل حقيقةً «الحَلّ لِوَقْف اضطهاد المُواطنين اليَهود في دُوَّل أَوْرُوبَّا هو خَلق وَطَن خاص باليهود وحدهم في مُسْتَعْمرة مُعَيَّنَة» ؟ لَا، هذا التَفكير (المُبَرّر لِخَلق إسرائيل) كان خَاطِئًا في أَصْلِه، وَمُعْتَلًّا في أُسُسِه، وَمُذْنِبًا في مَضْمُونِه، وَفَاسِدًا في مَنْطِقِه. إنه تَفْكِير مَغْلُوط، بَل هو مُضَلِّل. ولماذا ؟ لأنّ العَقْل (والعَدْل) كان يستوجب أن يكون الحلّ (لِمُشكل اِضطهاد اليهود)، هو نِضال هؤلاء اليهود، ونضال كلّ المُواطنين الآخرين غير اليهود، بهدف ***إِقَامَة وَتَنْفِيذ قَوانين تَضمن «الدّيموقراطية»، وَتُنْجزُ «حُقُوق الإنسان»، لِفَائِدة كلّ المُواطنين، بِغَضّ النَظَر عن دِيَاناتِهم، أو إِثْنِيَّاتِهم، أو طَائِفَاتِهم، أو مُعْتَقَدَاتِهم، أو لُغَاتِهم، أو أَلْوَان بَشَرَاتِهم، الخ.*** لأن وُجود مَظَاهِر «اِضْطِهَاد اليَهُود»، أو «مُعاداة السَّامِيَة»، في بلدان أَوْرُوبَّا، كان حَلُّهُ المَنطقي، هو إقامة واحترام قوانين تضمن «حُقوق الإنسان»، و«المساواة فيما بين كل المُواطنين»، دون أيّ تَمْيِيز على أساس الدّين. ولم يكن مَعْقُولًا أن يكون الحَلّ لِمُشكل اِضْطِهاد اليَهود في دُوَّل أَوْرُوبَّا هو «خلق وَطَن جديد خاص باليهود في مُسْتَعْمَرَة إِنْجْلِيزِيَة مُعَيَّنَة» (فلسطين). مثلما أن الحَلّ لضمان حقوق الغَجَر (gi tans) في أَوْرُوبَّا، أو الحَلّ لضمان حُقوق السُّود في أمريكا، أو الحَلّ لِضَمَان حُقُوق السُكَّان "الرُّوهِنْجَا" في بِيرْمَانِيَا، أو الحَلّ لِضَمَان حُقُوق السُكَّان الْوِيغُور" في الصّين، أو مَن شَابَهَهُم من المَجموعات المُضْطَهَدَة، لم يكن هو «خَلْق وَطَن خاصّ بهم في إحدى المُسْتَعْمَرَات». خاصّةً وأنّه، إذا كانت الدّول الغربية قد وَعَتْ حَقِيقَةً أَخْطَاءَهَا السّابقة، المُتجلّية في اِضطهاد اليهود، وإذا ما اِلْتَزَمَت بِصِدْق باحْتِرام «حقوق الإنسان»، فإن اللُّجُوء إلى «خَلْق وَطَن جديد خاص باليَهُود وحدهم» يُصْبِح غَير مُبَرَّر.

هذا على مُستوى الدّول الأوروبّية. أمّا على مُستوى الأشخاص اليَهُود في دُول أَوْرُوبَّا، فإن الحلّ المَنْطِقِي (الذي كان ينبغي أن يبرز

في أدمغتهم) هو البَقَاء في أوطانهم الأوروبية الأصلية، وخوض النضالات السياسية، والدّيموقراطية، بهدف فرض إقامة قوانين تضمن «الديمُوقْرَاطية»، و«حقوق الإنسان»، وتُلْغِي كلّ أشكال التَمْيِيز فيما بين المُواطنين على أساس الدّين.

فإذا كُنْتَ تَقبل بالفكرة (الصهيونية) القائلة (منذ العام 1945) : «لِتَجَنُّب اضطهاد اليهود في الدول الغربية، يجب أن يعيش هؤلاء اليهود في وطن (فلسطين) مُخَصَّص لليهود فقط»، فعليك أن تَقْبَل، بِنَفْس المنطق، أن يعيش المسيحيون منفردين فيما بينهم في وطن مُخصّص للمسيحيّين فقط؛ ونفس الشيء بالنسبة للمسلمين؛ وَلِلسِّيخ؛ وَلِلْوَثَنِيّين؛ وَلِلرُّوحِيّين؛ وَلِغَيْر المُتديّنين؛ ولجميع أنواع الأديان الأخرى. فهل ترون الآن السيناريو الذي يقودنا إليه هذا المنطق (الصهيوني) ؟ إنه فَصْل عالمي فيما بين الشُعوب على أساس الدّين! وَهُوَ ليس أمرا فَظِيعًا لَا يُطاق فَحَسْب، بل إنه يقودنا مباشرة إلى الحُروب الدّينية، مثلما كان الحال في العُصور الوُسطى. وَلَنْ يَقبل أي شخص عاقل مثل هذا الاختيار. لأن العقل يَسْتَوْجِبُ : الدَمَقْرَطَة (démocratisation)، والفَصْل بين الدّين والسياسة، وكذلك الفصل بين الدّين والدَّوْلَة، وَضَمَان حُرّية العَقِيدة، وَحُرّية العِبَادَة، وَحُرّيَة عَدَم العِبَادَة، وَمَنْع التَمْيِيز فيما بين المُواطنين على أساس الدّين، أو الْإِثْنِيَة، أو اللُّغَة، أو لَوْن البَشَرَة.

ذَاكَ الحَلُّ السّابق (الصّهيوني)، هو نَفْس الوَهْم القَديم الذي يَتَكَرَّر، والذي يَزْعُم أنه «إذا تَجَمَّعْنَا، وإذا عِشْنَا فِيمَا بَيْنَنَا، دُون أن يَخْتَلِطَ معنا غُرَبَاء أو أَجَانِب، فإن جميع قَضَايَانَا سَتُصبح على أحسن مَا يُرَام» ! إنه نفس الوهم العائلي، أو الوَهْم القَبَلِي (tribal)، الذي يَعتقد أن «مُجمل المشاكل المُجتمعية المُسْتَعْصِيَة على الحَلّ تَأْتِي من الأشخاص الذين يَخْتَلِفُون عَنَّا». وفي وَاقِع المُجتمع، ليس «الاختلاف» هو سَبَب صُعُوبَة أو اِسْتِحَالَة إيجاد حَلّ لِلمَشَاكِل المُجتمعية. وَلَا يُمكن أن يُوجد أشخاص إلَّا وَهُم مُخْتَلِفُون عَن بَعضهم بعضًا. وَلَا يَختلف الأشخاص فقط عن بَعضهم بَعْضًا، بَلْ يَدْفَعُنَا القَبُول بِالجَدَلِيَة إلى فَهْم وَتَقَبُّل فِكْرَة أنّ كلّ شَخص يَتَطَابَقُ مع

نَفسه، وفي نَفس الوَقْت، يَخْتَلِفُ عَنْ نَفْسِه، وَيَتَحوَّل إلى أَجْنَبِي عن نَفْسِه، وَيَتَنَاقَض مع نَفْسِه.

زِيَّادَةً على مَا سَبَقُ عَرْضُه، فإن ***الصهيونية، ومشروع بناء إسرائيل، يقومان هُمَا مَعًا على أساس الدِّيَانة اليَهُودية.*** وجميع الدول الإمبريالية الغربية تَعْتَبِرُ بناء الصهيونية، أو بناء إسرائيل، على أساس الدِّين اليَهُودي، تَعْتَبِرُه أمرًا طبيعيًا، وَمَقْبُولًا. وهذا ***الخلط بين الدِّين وَالسياسة، أو اِسْتِغْلَال الدِّين في السِيَاسَة،*** مقبول عندهم. ولو أنّ هذا الخلط بين الدِّين والسياسة يُؤَدِّي دَائِمًا إلى اِنْحِرَافَات سيّاسية خَطيرة. ولكن بِمُجرد أَن يَفْعَل الفلسطينيون شَيْئًا مُشَابِهًا، أي بِمُجَرَّد أن تَتَنَظَّمَ بعض تَنْظِيمَات المُقاومة الفلسطينية على أساس الدِّين الإسلامي (مثل حَرَكَة حَمَاس، أو الجِهَاد الإسلامي، الخ)، تَهْتِفُ جميع وسائل الإعلام الغربية على الفَوْر : «هؤلاء هم مُقاومون فلسطينيُّون إسلاميُّون ! أَيْ أَيْ أَيْ، هذا أمر خطير جداً ! إنهم فَاشِيُّون (fascistes)» ! لأن الدِّين الإسلامي يُوقظ في عُقُول مُواطِنِي الدّول الغربية مَخَاوِفَ دَفِينَة، أو كَراهية قَديمة، تَعُود إلى الحُروب الصَّلِيبِيَّة في العُصُور الوُسْطَى. وَتَرْفُضُ الدُّوَل الغربية أن تَقُول عن إسرائيل مَا قَالَتْهُ عن المُقَاوَمَات الفَلسطينية الإسلامية. حيثُ تَرفض الدُّوَل الغربية أن تَقول عن إسرائيل أنّها «فَاشِيَة، لِأَنَّهَا مَبْنِيَة على أَسَاس الدِّين» اليَهُودي، مثلما قَالَت عن المُقاومة الفَلسطينية الإِسْلَامِيَة أنها «فَاشِيَة، لأنها مَبْنِيَة على أساس الدِّين» الإِسْلَامِي.

وعليه، إذا اختار يَهُود دُوّل أَوْرُوبَّا، وإذا اِختارت كذلك دول أَوْرُوبَّا، حَلَّ «خَلْق وَطَن جديد خاص باليهود وَحْدَهُم» (في مُستعمرة فَلسطين)، ***فهذا الاختيّار يعني : أَوَّلًا،*** أن يَهود دول أَوْرُوبَّا لم يَكُونوا يَثِقُون في إمكانية «دَمَقْرَطَة» (démocratisation) دول أَوْرُوبَّا. وَلَم يَكونوا يَثِقُون في إمكانية اِلْتِزَام الدّول الغربية بعدم اِضطهاد اليهود في المُستقبل. ويعني ***ثَانِيًا*** ذلك الاختيّار، أن دُول أَوْرُوبَّا هي نفسها لم تكن تَثِق في إمكانية اِلْتِزَامِهَا باحترام قوانين «الديموقراطية»، و«حقوق الإنسان»، تُجاه مُواطنيها اليَهُود. وَيَعْنِي ***ثَالِثًا*** هذا الاختيّار، أنّ الدُّول الغربية كانت هي أيضًا تُريد سِرًّا أن تَتَخَلَّص كُلِّيًا، أو نِهَائِيًّا،

من اليهود المُتَوَاجدين داخل حُدودها، عَبْرَ جَمْعِهِم في «وَطَن خاصّ باليَهُود وَحْدَهُم»، بَعِيدًا عن أَوْرُوبَّا. وَيَعْنِي **رَابِعًا** هذا **الاختيّار أنّه، *ما دامت الدّول الغربية تُوافِقُ على وُجُود «وَطَن خاصّ باليهود وَحْدَهُم»، فهذه المُوافقة هي حُجَّة على اِسْتِمْرَارِيَة وُجُود كَرَاهِيَة سِرِّيَّة لَدَى هذه الدُّول الغربية تُجاه الْيَهُود.*** لأنه، لَوْ كانت هذه الدّول الغربية تُحِبُّ فِعْلًا، أو تَلْتَزِم فِعْلًا، بِالمُساواة بين كلّ مُواطنيها، دون اِعْتِبَار لِدِيَّانَاتهم، أو لِإِثْنِيَّاتِهِم، أو لِطَوَائِفِهِم، الخ، لَمَا قَبِلَت هذه الدول الغربية التَخَلُّص من مُواطنيها المُعْتَنِقِين لِلدِّيَانَة اليَهودية.

إنّ الحلّ الذي قَبله اليَهود المُتَصَهْيِنُون، والذي قَبِلَتْهُ الدّول الغربية، يَدفعنا إلى طَرح التَسَاؤُل التّالي : ***مَا عَلَاقة الفَلَسطينيّين بِاضطهاد اليهود في دُول أَوْرُوبَّا ؟ إن كانت الدّول الغربية تضطهد مُواطنيها اليهود، لماذا الحَلّ هو الانتقام من الفلسطينيّين، واستعمار وَطَنِهِم، وَتَهْجِيرِهِم، أو إِبَادَتِهِم*** (بِدَعْوَى أنهم «إِرْهَابِيّين») ؟ ومن كان يجب عليه أن يُؤَدِّيَ ثَمَن اضطهاد اليهود في دُوَل أَوْرُوبَّا، هل الفلسطينيّون أم الدّول الأوروبية ؟ أَلَيْسَ هؤلاء اليَهود المُتَصَهْيِنين جُبَنَاء، وانتهازيّين، وَمُسْتَلَبين (aliénés) ؟ حيث كان يجب على هؤلاء اليهود المُتَصَهْيِنين أن يُوَاجِهُوا مُواطني وَمُؤَسّسات الدُول الأوروبية، الذين كانوا يَضْطَهِدُونهم. وكان يجب عليهم أن يُناضلوا من أجل إِقَامَة وَتَنْفِيذ قَوَانين «ديمُوقْرَاطِيَة»، ومن أجل فرض احترام «حقوق الإنسان» كاملة، وَلِفَائِدَة كل المُواطنين، وَدُون تَمْيِيز. أمّا الهُجوم على الشعب الفلسطيني البَعِيد، وَالضَّعِيف، والبريء من اضطهاد اليهود في دُوَل أَوْرُوبَّا، فهو عَمل جَبَان، وَمُنَافِق، وَمُخَادِع، وخارج عن الموضوع المَعْنِي. ومثلما يقول المَثَل الشّعبي: «اِنْهَارَت مِئْذَنَةُ المَسْجد، فَشَنَقُوا الحَلَّاق». وَيَعْنِي هذا المثل : «لَا عَلَاقَة بين هَذَا وَذَاكَ». وَكُلّ مَن يُصِرّ على ***مُعالجة اِضْطِهَاد اليَهُود في دُوَل أَوْرُبَّا بواسطة اِستعمار وَطَن فَلَسطين،*** يرتكب تَعَسُّفًا مُنَافِيًّا لِلْعَقْل، وَمُنَاقِضًا لِلْعَدْل.

وَلَوْ كانت الدُوَل الأَوْرُوبّيَة صَادِقَة، وَنَزِيهَة، في إِيمانها بأنّ «حَلّ مُشْكِل اِضْطِهَاد اليَهُود في الدُوَل الْأَوْرُوبّيَة هُو خَلْق وَطَن جَدِيد خَاصّ

باليَهُود وَحْدَهُم»، كان على هذه الدُوَل الْأَوْرُوبّيَة، في هذه الحالة، أن تَقْتَطِعَ مِساحَة، أو مِنْطَقَة كَافِيَة، من أَرَاضِيهَا في أَوْرُوبَّا، وَأَنْ تُعْطِيَهَا لِلْحَرَكة الصَّهْيُونِيَة، لِكَيْ تُقِيمَ عليها «وَطَنًا جَدِيدًا خَاصًّا بِاليَهُود وَحْدَهُم». لكن الدُوَل الأَوْرُوبّيَة كانت كَاذِبَة، وَمُنَافِقَة، وَمُتَآمِرَة. حيثُ فَرَضَت بِالقُوَّة العَسْكَرِيَة، أن تُنْتَزَع أَرْضُ هذا «الوَطَن الجَديد الخاص بِاليَهُود وَحْدَهُم» من شعب فَلسطين، البَعِيد، والضَّعِيف، والمُسْتَعْمَر، والمَقْهُور، والذي هو بَرِيءٌ من اِضْطِهَاد اليَهُود في أَوْرُوبَّا. وَرَفَضَت هذه الدُوَل الْأَوْرُوبّيَة أن تَقْتَطِعَ أَرْض هذا «الوَطَن الجَديد» من أَرَاضِيهَا الخاصّة بها. هذا هو التَحَايُل، والظُّلْم، والاستعمار. والآن، ما هو الحَلّ لِتَصْحِيح ذلك الخَطَأ ؟ الحَل هو تَصْحِيح ذلك الخَطَأ الأَصْلِي، ليس عَبْر التَفَاوُض مع المُسْتَعْمِرِين الصَهَايِنَة، وَليس عَبْر مُحَاوَلَة إِقْنَاعِهِم بِخَطَأِهِم، وَإِنَّمَا الحَلّ هو الكِفَاح المُسَلَّح الثوري ضدّ مُسْتَعْمِرِي فَلَسْطِين، إلى أن تَزُول كُلِّيًا إسرائيل، وأن يذهب الإسرائيليّون إلى دُوَل أَوْرُبَّا وأمريكا.

ومن بين العَناصر التي تَفْضَح زَيْفَ مَزَاعِم الصَّهَايِنَة وَمُسَانِدِيهم، أنّه كُلّما قَاوَمَ الفَلسطينيّون المُسْتَعْمَرُون الْإِسْرَائِيلِيّين المُسْتَعْمِرِين، تَصِيح وَسَائِل إِعْلَام الدّول الغربية بِصَوت مُوَحَّد : «أُنْظُرُوا إلى هؤلاء الفَلسطينِيّين، إنهم إِرْهَابِيُّون، بَرَابِرَة، مُتَوَحّشُون»! وَكُلَّمَا هَاجَمَت إسرائيل الفلسطينيّين، أو اِسْتَوْلَت على أراضيهم، أو خرّبت بيوتهم، أو اِعْتَقَلت شُبّانَهم، أو اِغْتَالت طَلَائِعَهم، تُعْلِنُ وَسَائِل إِعْلَام الدّول الغربية بصوت مُوَحَّد : «مِنْ حَقّ إِسْرَائِيل أن تُدَافِع عَن نَفْسِهَا» ! وَمَعْنَى مَوْقِف الدُّوَل الغربية هو أنه لَا يَحِقُّ لِلْفَلَسطينيّين سِوَى الخُضُوع لِلْقَهْر العُنْصُرِي الإسرائيلي، والقَبُول بِالْاِسْتِعْمَار الْإِسْرَائِيلِي، وَبِالتَهْجِير، أو الْإِبَادَة. هذا هو الْاِنْحِيَاز السَّافِر ! هذا هو الكَيْل بِمِكْيَالَيْن ! هذا هو نِفَاق الدول الغربية الْإِمْبِرْيَالِيَة. وهذا هو جُرْمُهَا.

وَاخْتِيَار «خَلْق وَطَن جديد خاص باليهود»، في مُستعمرة إِنْجْلِيزِيَة مُعَيَّنَة (فلسطين)، قد تَكون ***له أهدافها أخرى سِرّيَة***، وغير مُعْلَنَة، ومُخالِفة لِلْمُبَرِّرَات التي قُدّمَت عَلَنِيَّةً. ومن ضِمْنَ هذه الأهداف السِرّيَة، خَلْق قَاعِدة عسكرية مُتَقَدّمَة في الشّرق الأوسط. وهذه القَاعِدة

ستكون بالضَّرُورة تَبَعِيَّة (dépendante) للدّول الغربية الْإِمْبِرْيَالية. والغاية من هذه القاعدة هي مُزَاحَمَة الدّول العربية في اِسْتِغْلَال آبَار النَفْط والغَاز المَوجودة في منطقة الشّرق الأوسط، وَإِزَاحَة بعض هذه الدّول، وَتَعْوِيضها. وقد يَتَأَكَّد هذا الهدف السِرّي من خلال إِقْدَام إسرائيل (وأنصارها) مُؤَخَّرًا على ***مُحاولة اِسْتِغْلَال حُقُول غَاز وَنَفْط موجودة في شَوَاطِئ فلسطين المُحتلّة.*** ويقول البعض أنّ مخزون هذه الحُقُول هَائِل. وَيَتَأَكَّد أيضا من خلال اِسْتِعمال إسرائيل عُمَلَائِهَا في كُرْدِسْتَان العراق بِهَدَف سَرِقَة النَّفْط من آبَار سُورْيَا والعراق.

ما معنى العناصر المَعروضة سابقًا ؟ معناها أن كلّ مُبَرِّرَات خَلق الكِيّان الإسرائيلي، هي مَغْلُوطَة، وَمُضَلِّلَة. وكل ما هو مَبْنِي على أساس بَاطِل، فهو أيضًا بَاطل.

3) بُطْلَان أُسُس الأَيْدِيُولُوجِيَة الصَّهْيُونِيَة

الأَساس الفكري الذي بُنِيَّ عليه مَشروع إنشاء إسرائيل، هو ***الْأَيْدِيُولُوجِيَّة الصّهيونية.*** وَأُسُس هذه الْأَيْدِيُولُوجِيَّة هي كلّها مَغْلُوطَة. ولا تُوجد وَلَوْ ذُرَّة عَقْلَانِية واحدة في هذه الْأَيْدِيُولُوجِيَّة الصَّهْيُونِيَة. وتتكوّن هذه الأيديّولوجية الصّهيونية من ***مُعتقدات سَاذَجَة*** (naïves)، أبرزها ما يلي :

ـ أُطْرُوحَة «***الشّعب اليهودي***» : وهذا «الشّعب اليَهودي» المَزْعُوم، لَا يُوجد، وَلَا يُمكن أن يُوجد. مثلما أنه لَا يُوجد «الشّعب المَسيحي»، أو «الشعب المُسلم»، أو «الشعب الهندوسي»، أو غير ذلك. وكلّ شخص يستعمل عبارة «الشّعب اليَهودي»، فهو تحت تأثير الدّعاية الصهيونية. وما يُوجد في بلدان العالم، هُم «مُواطنون يهود»، و«مُواطنون مَسيحيّون»، و«مُواطنون مُسلمون»، وَمُواطنون غير مُتَدَيِّنين، الخ. وهذه الأصناف المُختلفة من المُواطنين، تُوجد وهي مُختلطة في 193 دولة

(عُضْوَة في "منظمة الأمم المُتّحدة" ONU). ولماذا تُصِرُّ الحركة الصهيونية (ودولة إسرائيل) على الكلام عن «***الشّعب اليهودي***»، وعن «الدّولة اليهودية» ؟ لأنها تُريد اِحْتِكَار تَمْثيل كلّ يَهود العالم. بينما لا يحقّ لأية دولة في العالم، أن تَزْعُم أنها تُمثّل مُعْتَنِقِي أيّة ديَّانَة مُحَدَّدة في العالم. ولماذا ؟ لأن مُختلف أصناف المُواطنين المُتَدَيّنِين (وغير المُتديّنين)، يُوجدون (وهم مُختلطين) في مُعظم دول العالم. وَلَمْ، وَلَنْ، يُفَوّض الأشخاصُ (الأحرار) المُعْتَنِقُون لِأَيّ دِين مُحَدّد، لِأيّة دولة مُعَيَّنَة، أن تتحدّث باسمهم.

ـ أطروحة «***الدولة اليهودية***» : والكلام عن «الدولة اليَهودية» هو مَظهر مِن مَظاهر اِسْتِغْلَال الدّين في ميدان السياسة. بَيْنما تَختلف «الدّولة» جَذْرِيًّا عن «الدّين» (سواءً كان هذا الدّين هو اليَهودية، أو المَسيحية، أو الإسلام، أَو أيّ دِين آخر). بَلْ تَتَنَاقَضُ «الدّولة» مع «الدّين». و«الدّولة» هي مجرّد أجهزة، ومؤسّسات، وعلاقات مُجتمعية، وعلاقات سِيَّادَة وَخُضُوع، الخ. أمّا «الدّين» فهو مُعتقدات، وَمُقَدَّسَات، وَعِبَادَات، وَطُقُوس، وَعَادَات، الخ. حيث لا يُمكن لِـ «الدّولة» أن تكون «دولة يَهودية»، أو «دولة مسيحية»، أو «دولة مُسلمة». والإِصْرَار على تحويل «الدّولة» إلى «دولة دِينِيّة»، هو مُحاولة لِتَحْوِيل «الدّولة» إلى نَوْع من «الكَنِيسَة» الإجبارية، التي تُريد «الدّولة» فَرضها على كلّ المواطنين. وَتُريد إسرائيل أن تَكون هي «المُمثّل الشّرعي والوحيد لكلّ يهود العالم»، وهذا الزَّعم هو اِفْتِرَاء جَائِر، ومرفوض. وأعداد مُتزايدة من اليهود (غير المُتَصَهْيِنِين) في العالم يرفضون أن تَتَصَرَّف «دولة إسرائيل» باسمهم.

ـ أطروحة «***الشعب اليهودي المُختار***»، أو «المُفَضَّل»، من طرف الْإِلَـه : أي الشّعب الذي «يُفضّله» اَلْإِلَـهُ على كلّ شُعوب العالم. وهذه الأطروحة هي اِفْتِراء وَكَذِب على الإله، وعلى البَشر. لأنه لا يُعْقَل أن يَنْحَطَّ الإله إلى مُستوى المُناورة بمَجموعة بَشَرِيَة ضدّ مجموعات بَشَرِيَة أخرى. ولأنه لا يُوجد أيّ مُبرِّر عَقْلَانِي لِتَفْضِيل جماعة بشرية على أخرى، باستثناء أَنَانِيَة، أو غُرُور، الأشخاص الذين يزعمون أنهم «مُفَضَّلِين» لدى الإلـه.

ـ أطروحة «***الأرض المَوْعُودة من طرف الإله***» : وهذا أيضا اِفْتِرَاء، وَكَذب، على الإله، وعلى البشر. لأن الإله لا يتدخّل في شؤون البَشَر. ولا يُوجد ما يُثبت أنّ الإله يُمَيّزُ فيما بين الجماعات البشرية. ولا يُوَزّع الإله الهَدَايَا على جماعات بشرية على حِسَاب جماعات أخرى. ولا يَتَدَخَّل الإله في مجال التَحْكِيم، أو التَدْبِير، لِلْمِلْكِيَّات العَقَارَات المُتنازع عليها فيما بين البَشَر.

ـ أطروحة «***أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض***» : وهي أيضا كذب وَقِح. وهدفه هو تَبرير اِستعمار فلسطين. حيث يزعم الصّهاينة أن الشعب الفلسطيني غير مَوجود، ويدّعون أن أرض فلسطين كانت فارغة حينما اِحتلّها واستعمرها اليهود الصّهاينة في سنوات 1948. إنهم ينفون التاريخ، وينكُرون وُجود المُقاومات الفلسطينية التي اِصطدموا بها. كأنّ هذا الشّعب الفلسطيني سَقط من السّماء، فيما بعد، فَوْرَ اِنْتِهَاء اِحتلال واستعمار فلسطين. وهذا كذب مُعتاد عند المُستَعْمِرين.

ـ أطروحة «***الهُولُوكُسْت هي أكبر جريمة في تاريخ البشرية***» : وهي كذبة لَا تُبرّرها سوى ***الْأَنَانِيَّة المُفْرِطَة*** لليهود الصهاينة. لأن الجرائم الفَظِيعَة المُرتكبة في تاريخ البشرية هي كثيرة. ولا يقدر أيّ بَشر على أن يُحدّد بشكل عَقْلَانِيّ مَن هي الجريمة الأكثر إِيلَامًا أو فَظَاعَةً في تاريخ البَشرية. لأن كلّ ضحية تزعم أن الجريمة التي تَعرّضت لها هي «أكبر جريمة في تاريخ الشرية». ولماذا لَا يَحِقُّ لِلْفَلَسطينيّين، وَبِمَنْطِق مُشابه، أن يَعْتَبِرُوا أنّ الاضطهاد الذي يَفرضه الصّهاينة على الفلسطينيّين، هو أَكْبَر، أو أَفْضَع، من «الهُولُوكُسْت».

ـ إلى آخره.

وهذه ***الأَيْدِيُولُوجيَّة الصَّهْيُونِيَة***، هي مَنْظُومة فكرية اِستعمارية، وَعُنصرية، وَإِمْبِرْيَالِيَة، وَبَسِيطَة، وَسَاذَجَة. بَلْ هي مُفْرِطَة في الأنانية، وفي الانتهازية، وفي الغُرُور، إلى درجة أن الوَصْف الوحيد، الصّريح، والمُلائم لِنَعْتِهَا، هو كَوْنُهَا «بَلِيدَة». وهذا الوَصْف ليس شَتْمًا، وإنما هو وَصْف سياسي موضوعي. وعلى عَكس الخُرَافَة التي تَدَّعِي أن «الشَّعب اليهودي» هو «شَعْبُ عَبَاقرَة»، وعلى عَكس ما يَظُنُّه غَالِبِيَّة اليَهُود

المُتَصَهْيِنِين حَوْل أنفسهم، نَرَى أنّ هذه ***الْأَيْدِيُولُوجيَّة الصَّهْيُونية هي سَخِيفَة، وَمُضَلِّلَة، بَل غَبيَة***. وندرك أن الأشخاص الذين يتبنون هذه الأيديولوجية الصهيونية، هُم غير مَبدئيّين، بَلْ هُم أيضًا أنانيّين، أو مُتَعَجْرِفين، أو انتهازيّين.

وكلّ إنسان سَلِيم في عَقْلِه، إذا إطَّلَع على مضمون هذه ***الأَيْدِيُولَوجيَة الصّهيونية***، سيقول لك تِلقائيًا أن المَآل المَحتوم لِلْأَشخاص الذين يُؤمنون بهذه الأَيْدِيُولَوجيَة سيكون هو الفشل، والإفلاس. وإذا أَجَبْتَ هذا الشّخص بأَن إسرائيل هي واقع حقيقي، وَمُسْتَقِر، وَمُسَيْطِر، وَقَاهِر، وَمَوْجُود على الأرض، قد يُجيبك هذا الشخص العاقل أنه، مهما كانت قوة إسرائيل المؤقتة، ومهما طالت قصتها، فإنّ مَآل هذا الكيّان الإسرائيلي المَحتوم، سيكون هو الانهيّار الشّامل. لأن ما بُنِيَ على بَاطِل، سَيكون هو نفسه بَاطِلًا.

4) السرُّ في سَيْطَرَة إسرائيل على الدّوَل الغَرْبِيَة

رغم تخلّف الْأَيْدِيُولُوجيَّة الصَّهيونية، ورغم غَبَائِهَا السياسي، نُلاحظ بِانْدهاش أنّ الحركة الصَّهيونية اِستطاعت أن تُؤَثِّر بِقُوّة، إلى حُدُود سَيْطَرَة نِسبيّة، في وَسائل الإعلام، وفي الثقافة، وفي المؤسّسات المَالية، وفي الحُكومات، في الوِلَايَات المُتّحدة الأَمْرِيكِيَة، وفي المملكة المُتّحدة، وَبَلْجِيكَا، وَاسْوِيسْرَا، وكندا، وأستراليا، وفي مُعظم دُوَل أوربّا.

وقد تَقَوَّى تَأثير المُخابرات الإسرائيلية إلى درجة أن أيّ مُشْتَغِل في وسائل الإعلام في الدول الغربية، إذا ما اِنْتَقَد إسرائيل، أو اِسْتَهْجَنَ الأطروحات الصَّهيونية، يَتعرّض حَتْمًا لِلتَّهْمِيش، أو العَزْل، أو الفَصْل، أو الإبعاد، أو الطّرد. بل أصبح من شِبْه المُستحيل على أيّ شخص مُرَشَّح لِمَنْصِب رِئَاسَة الحُكومة، أو لِمَنصب وزاري، أو لِقِيّادة أيّة

مؤسّسة مهمّة، أن يَنْجَح في الانتخابات إذا لم يَكن مُناصرًا لإسرائيل، أو إذا لم يَكن مُسانداً لِلأطروحات الصَّهيونية.

وفي فرنسا مثلًا، أصبحت حالة المُمَثّل الفُكَاهِي دْيُو دُونِي امْبَالَا (Dieudonné M'bala) رَمْزًا مُعبّرا عن قُوّة تَأْثِير اللُّوبِي (lobby) الصَّهيوني. حيث حاربته الحَركة الصَّهيونية إلى أن صدرت قرارات قَضَائِيَة وَحُكُومية تَمْنَعُه كُلِّيًا، وَنِهَائِيًّا، من الظهور في وسائل الإعلام، وفي المَسَارِح، والأفلام، وما شَابَهَهَا. والسّبب هو أن الفُكَاهِي دْيُو دُونِي اِنتقد إسرائيل والصَّهْيُونِيَة. وفي عدّة بلدان غربية، مثل فرنسا، واسْوِيسْرا، وبَلْجِيكَا، وكَنَدَا، أدانه قُضَاةٌ مُتَصَهْيِنُون بِتُهَم مثل : «التحريض على التمييز، أو على كراهية اليهود، أو التحريض على العنف العنصري، أو الديني، أو الإهانة العنصرية، أو إِنْكَار الهُولُوكُوسْتْ، أو الدّعوة إلى الإرهاب» ! لأن الصَهَايِنَة الإسرائيليّين يَعتبرون نَقْد سياسات إسرائيل مَظْهَرًا من مَظاهر «كراهية عنصرية ضد اليهود» ! بمعنى آخر، إمّا أن تتركوا الصهاينة يستعمرون كما يريدون، وإمّا أنهم سيتّهمونكم بِـ «الكَراهية العُنصرية ضدَ اليَهود» !

وفي الولايات المُتّحدة الأمريكية، غَدَت العادة المُتكرّرة والمُثِيرَة لِلسُّخْط، هي أن كل مرشّح للرئاسة يُصبح مُجبرا على الإفصاح عن وَلَائِه لإسرائيل، وعن مُساندته للصَّهيونية، وإلَّا فإنّ دعَايات وسائل الإعلام القَوِيَّة تَتَكَفَّل بِمُحاربته، وَبِإِفْشَالِه في الحملات الانتخابيّة.

فَكَيْف اِستطاعت الحركة الصهيونية أن تُلَوّثَ عُقُول العديد من مُواطِنِي العالم، وأن تُؤثّر في العالم كلّه، وبهذه القُوّة ؟

السِرُّ المُفَسِّر لهذا التَأْثِير المُدهش، هو ما شرحه المناضل اليهودي، المُناهض لِلصّهيونية، جَاكُوب كُوهِين (Jacob Cohen)، في بعض كُتبه، ومُحاضراته (رغم الهجمات الإرهابية التي نَفّذها ضدّه عملاء الموساد الإسرائيلي لإسكاته). حيث أوضح أن قُوّة المُخابرات الإسرائيلية مَبْنِيّة على أساس جيش واسع من «الصَيَانِيم». وفي اللّغة العِبْرِيَة، كلمة «صَيَانِيم» هي جمع كلمة «صَيَان». والشّخص «الصَيَان» هو الذي يُعِين، أو يُسَاعِد، أو يُنَاصِر. وشرح جَاكُوب كُوهِين أن كلّ شخص يَهودي في العالم، ومهما كان البلد الذي يتواجد داخله، ومهما

كانت المُؤَسَّسَة التي يَشتغل فيها، يَتحوّل تِلْقَائِيًّا، وَطَوعيّا، إلى «صَيَان»، أيْ إلى مُسَاعِد، أو عَمِيل سِرّي، مُجَنَّد، وَمُنْضَبِط، لخدمة إسرائيل، وَلِتَنْفِيذ أَوامر مُؤسّساتها المُخابراتية. وهذا يفضح أن مُجمل اليهود الصهاينة يرفضون الاندماج في البلدان التي يعيشون فيها، ويظلون مخلصين قبل كل شيء لدولة إسرائيل. وَمُجمل الحركة الصَّهيونية تَخضع، وَتَنْضَبِط، لِتَوجيهات الأجهزة المُخابراتية الإسرائيلية (المُوسَاد [الخارجي]، والشِّينْ بِيتْ، أو الشَّبَاك [الداخلي]، والأَمَان [العسكري]، الخ). وكل مؤسّسة في العالم يَتَوَاجَد فيها يَهُود مُتعاطفين مع إسرائيل، أو مع الصَّهْيُونِيَة، تُصبح المُخابرات الإسرائيلية قادرة على التَسَرُّب داخلها، وعلى التَأْثِير فيها، وعلى توظيفها لِخدمة أهداف إسرائيل. وهكذا اِسْتَطَاعَت إسرائيل أن تُجَنِّدَ مُجْمَل الأشخاص اليَهُود المُتَصَهْيِنين في العالم، وأن تُحَوِّلَهُم إلى عُمَلَاء سِرِيّين، وَمُنْضَبِطِين لِأَوَامِر الأجهزة الإسرائيلية المُخابراتية. وكلّ مُؤسّسة تَمَّ التَحَكُّم فيها، تُصبح هي نَفسها وَسِيلة لِلتَحَكُّم في مُؤسّسات أخرى. واستطاعت إسرائيل أن تُؤَثِّر سِرًّا في الكثير من المُؤسّسات المُتنوّعة الموجودة في العالم. وقليلون هم الأشخاص المَسْؤُولُون في العالم الذين يَقدرون على مُعارضة إسرائيل، أو نَقْدِهَا، أو تَحَدّيهَا.

5) هَلْ تَحتاج حَقًّا الدّول الإمبريالية إلى وُجُود إسرائيل ؟

خلال تحليل وَنَقد الْأَيْدِيُولُوجِيَّة الصَّهيونية، يَبْرُز فورًا في الذّهن السؤال التالي : إذا كان ***المشروع الصّهيوني*** إجراميًّا (أيْ فيه ظُلم ضدّ الشّعب الفلسطيني المُسْتَعْمَر)، وإذا كانت ***الأَيْدِيُولَوجِيَة الصَّهيونية*** فعلًا ***أيديولوجية حَمقاء***، فَكَيْف أَمْكَن تَبَنّيها على نطاق واسع عبر العالم ؟ وكيف أمكن الدّفاع عنها ؟ وكيف أمكن الإنفاق عليها بلا

حساب، على امتداد أكثر من 75 سنة، من طرف أقوى الدّول الإمْبرْيَالِية في العالم ؟ ***ولماذا سقطت كلّ هذه الدّول الغَربيّة، المُدَعّمَة لإسرائيل، في فَخّ المُشاركة في دَعْم مشروع إجرامي، وأحمق، ومحكوم عليه بإفلاس حَتْمِيّ*** ؟ هذا سُؤال بَالِغ الأهمّية.

والسِرّ في الجواب على هذا السؤال الجوهري، هو ما علّمه لنا كَارْل مَارْكَس، وَافْرِيدْرِيش إِنْجَلْس. وهو أن الحماقات التي يرتكبها الرَّأْسَماليّون، والإمبرياليّون، لَا حُدود لها. بل من المُمكن أن يَقُود الإمبرياليّون، والرّأسماليون، العالمَ كلّه إلى مَجَازِر، وإلى كَوارِث شاملة، دون أن يستفيق ضميرهم الإنساني.

لكن الغريب أيضا، وخلافًا لآراء منتشرة على نطاق واسع، هو أن الإمبرياليّين، والرّأسماليّين، لا يحتاجون إلى وُجود إسرائيل لِخِدْمَة مصالحهم المادّية الأساسية في الشّرق الأوسط، أو في مختلف مناطق العالم. لأنّه أثناء عَمليّات تَصْدِير مَنْتُوجاتهم الصناعية، وأثناء تَصدير خدماتهم والمالية، وَأثناء اسْتِثْمَار رَسَامِيلهم في مختلف بُلدان العالم، وَأثناء تَأْسِيس فُروع لِشَرِكَاتِهم فيها، وَأثناء اسْتِرْجَاع أرباحهم إلى أوطانهم الأصلية، فإن الرَّأْسَماليّين والْإِمْبرْيَالِيّين لا يحتاجون إلى وُجود إسرائيل. كما أن هَيمنة الدّول الغربية الإمبريالية على الدُّوَيْلَات العربية النَفطية في الشّرق الأوسط، والتَلَاعب بِبَعض حُكّامها، وَنَهْب ثرواتها، كان وما زال مُمكنا، بَل سَهْلًا، ولا يَحتاج بَتَاتًا إلى وُجود إسرائيل في الشّرق الأوسط.

بل قد يكون العكس هو الصحيح. أيْ أنّ اليَهُود الرَّأْسَماليّين المُتَصَهْيِنين، هم الذين يحتاجون إلى تَوْرِيط مُجمل الدّول الرَّأْسَماليّة والْإِمْبرْيَالِيّة الغَربيّة، في دَعْم شَامِل، وَلَا مَحْدُود، لمشروع تَأْسِيس هذا الكِيَان الإسرائيلي. خاصّة وأنّ المُبَرّر الأساسي لخلق إسرائيل، كان في البداية هو «خلق وَطَن خاص بِاليَهود، لِكَيْ لَا يَتَعَرَّضُوا مرّةً أخرى لاضطهاد مُشابه لِلْاضْطِهاد الذي عَانَوْا منه في بلدان أَوْرُوبَّا».

6) نَـتَائِـجُ وُجود إسرائيل

وما هي نَتَائِج وُجود إسرائيل اليوم ؟ من بين نتائجها، أنّ اليهود المُتَصَهْيِنين الإسرائيليّين، يُمارسون على الفلسطينيّين اِضْطِهَادًا أَكبر، وَأَعْنَف، من ذلك الاضطهاد الذي كان اليهود في الدّول الأوروبية يُعانون منه. أيْ أن ***اليَهُود تَحَوَّلُوا إلى ضِدّهم. وهكذا تَحوّلت الضَحيَّة إلى مُجرم.*** وَيُسَمّي الماركسيّون هذه الظّاهرة في الجَدَليّة بِـ «***قانون تحوّل الشَّيء إلى نَقيضه***». حيث تحوّل اليهود المُتَصَهْيِنُون إلى شبه نَازِيّين. وأصبح الفلسطينيّون اليومَ مُعَذَّبين أكثر مِمَّا كان اليهود مُضْطَهَدين في ألمانيا النَّازيَة.

ومن بين نتائجها أيضًا، أَن إسرائيل، والصهاينة، وأنصارهم، يُحَاوِلُون ***إِبَادَة الفلسطينيّين***، مِثلما كان النَازِيُّون الألمان يحاولون إِبَادَة اليَهُود بواسطة المَحرقة أو غيرها. وإذا كانت مُحاولة إبادة اليهود في أَوْرُوبَّا، من طرف النازيّين الألمان، تُعتبر ***جَرِيمَة*** مرفوضة من طرف الدّول الغربية، فَكَيْفَ يُعْقَل أن تُصبح اليوم ***إِبَادة الفلسطينيّين*** (والتَطْهِير العِرْقِي، وَتَهْجِير البَقِيَّة منهم) مَقْبُولَة تَمَامًا من طرف الدّول الغربية، بهدف تحقيق المشروع الصَّهْيُونِي الاستعماري في فلسطين المُحتلّة ؟ هل كانت الدّول الغربية تَكْذب في تَبَاكِيهَا على مُحاولة إبادة اليَهود ؟ هل الدّول الغربية الْإِمْبرْيَالِيّة مُسْتَلَبَة (aliénés)، أو مُتَخَلّفَة سيّاسيًّا، أو مُتَهَاوِيَة أخلاقيًّا، إلى درجة أنها لَا تَرَى، وَلَا تَعِي، وَلَا تُدْرِك، ما يَجْرِي مِن مُحاولة ***إِبَادة لِلفَلسطينيّين*** ؟ هل يَلزم أن يَمُوت الفلسطينيّون بالمَلَايين، وليس بِعَشَرَات الآلاف، لِكَيْ تَسْتَفِيقَ ضَمَائِر المَسْؤُلِين في الدّول الغربية ؟ وما الخُلاصة من ذلك ؟

7) خُـلَاصَـــة جُزْئِيَة

الحَدّ الأدنى في الخُلاصات، هو أن الحَلّ الذي جاءت به الحركة الصّهيونية، هو مُجرّد غَبَاء سيّاسِي، وظُلم، وانحراف عُنْصُرِي، وَمَـفْـتُون بِالْاِمْتِيَّازَات الأنانية لِلْإِسْتِعْمَار. وكلّ مَن يُساند مشروعًا ظَالِمًا، وَغَبِيًّا، سَيَكُونُ هُو نَفْسُـه ظَالِمًا، وَغَـبِـيًّا.

وَيُوجَد تَنَاقُض وُجُودِي، وَمُطْلَق، بين كِيَّان إسرائيل، والشّعب الفلسطيني. فَإِمَّا أن يُوجَد كِيَّان إسرائيل، وَأَنْ يُبَادَ، أو يُهَجَّرَ، شعب فَلَسْطِين، وَإِمّا أن يُوجَدَ الشَّعْب الفَلسطيني، وأن يَزُولَ كُلِّيًا الكِيَّان الْإِسْرَائِيلِي. وَلَا يُوجد حَلٌّ ثَالِثٌ بَدِيل. لأن التَعَايُش بين المُسْتَعْمَرِين والمُسْتَعْمِرِين، قد يُوجَد مُؤَقَّتًا، لكن مِن المُسْتَحِيل أن يَدُوم أَبَدِيًّا. وَلِأَنّ التَعَايُش بين الشعب الفلسطيني وَإِسْرَائِيل مُسْتَحِيل. وحتّى إذا تَعَايَشَ شَعب فَلسطين وإسرائيل خلال مرحلة مُعَيَّنَة، فإن هذا التَعَايُش سَيَنْكَسِر حَتْمًا، وَسَيُؤَدّي إِمَّا إلى زَوَال شَعب فَلسطين، وَإِمَّا إلى زَوَال إسرائيل. وفي كِلْتَا الحَالَتَيْن، فإن طَبِيعَة الكِيَّان الصَّهْيُونِي (باعْتِبَاره اِسْتِعْمَارِيًّا، وَعُنْصُرِيًّا، وَتَوَسُّعِـيًّا، وَإِمْبِرْيَالِيًّا، وَمُنَاقِضًا لِلْبَشَرِيَة كُلِّهَا) تَفْرِضُ بِالضَّرُورَة بِأَنْ يَكون مصير إسرائيل، وفي آخر المَطَاف، هو الْاِنْهِزَام، والتَأَزُّم، والْاِنْهِيَّار، ثُمّ الزَّوَال. وَيَسْتَحِيل على الدُّوَل الغَربية الْإِمْبِرْيَالية أن تُنْقِذَ إسرائيل من هذا المَصِير الحَتْمِي. وَكُلَّمَا حَاوَلَت الدُّول الغَربية الْإِمْبِرْيَالِيَة أن تَحْمِيَ إسرائيل، أو أن تُدافِع عنها، فإن عملها هذا سَيَدْفَعُهَا نَحْو الْاِنْهَاك، والضُعْف، ثُمّ الْإِفْلَاس (سيّاسيًا، وعسكريًا، واقتصاديًا، وثَقافيًا، وأخلاقيًا). الشّيْء الذي يُؤَدّي هو نفسه إلى زَوَال إسرائيل.

وهكذا، تُوجد العديد من التَنَاقُضَات، والمَظالم، في الْأَيْدِيُولُوجِيَّة الصَّهيونية، وفي مَشروع إنشاء إسرائيل. وعليه، سيكون مَآلُهُمَا الحَتْمِي، هو الفَشَل، والْاِنْهِيَّار، والإفْلَاس.

رحمان النوضة

[نشر رحمان النوضة هذا المقال، لأوّل مرّة، على موقع "الحوار المُتمدّن"، في يوم 29 ديسمبر 2023. وهذا المقال هو فصل حديث، مُقتطف مِن كتاب : رحمان النوضة، "نقد الصّهيونية"، نشر 2017، الصفحات 206، الصيغة 20. وَيُمكن تَنْزِيل هذا الكتاب من مُدَوَّنَة الكاتب. ورابطه هو : https://livreschauds.wordpress.com/2017/08/07/نقد_الصهيونية/].